

الفصل السابع

الأمويون

الحسن — تنازله — معاوية — اغتصاب الخلافة — النزاع بين القبائل
بنو مضر — بنو حمير أو اليمانيون — تأثير النزاع بين القبائل على الإسلام —
توسع الإمبراطورية — وفاة معاوية — يزيد — الحسين — موقعة
كربلاء — الثورة في الحجاز — انتصار جيش الشام في الحرة — نهب المدينة —
موت يزيد — معاوية الثاني — عبدالله بن الزبير — مبايعة أهل الحجاز

انتخب الحسن أكبر أبناء على ، للخلافة انتخاباً عاماً من جميع أهل الكوفة وملحقاتها ؛ بيد أن عدم استقرار الشعب المتقلب الأهواء ، الذي حطم آمال الأب أدى بالأبن إلى التنازل السريع عن الحكم ؛ وذلك أن الخليفة الجديد لم يكد يتولى منصب الخلافة حتى زحف معاوية على العراق ، فاضطر الحسن إلى أن يدخل ميدان القتال ، قبل أن يدعم مركزه ، أو ينظم الإدارة التي اضطربت بموت أبيه . فسير قوة تحت إمرة قيس لصد هجمات جيش الشام ، وأسرع هو بالقوة الرئيسية إلى المدائن . وحدث أن أشيع كذبا بين جنوده سقوط « قيس » في حومة الوغى ، وانهمزام جيشه ؛ فتمرد جنود الخليفة الشاب ؛ واتهبوا سرادقه ورحله ؛ وفكروا حتى في القبض عليه وتسليمه إلى معاوية ؛ فيئس الحسن مما ناله على أيديهم وارتحل إلى الكوفة مصمماً على التنازل عن الخلافة ؛ وقد حمّله غدر مؤازريه العراقيين ، الذين أسرفوا له في الوعود وبرهنوا على نكث اليهود على أن يعير اقتراحات معاوية أذناً صاغية . وأدت المفاوضات التي دارت بينهما إلى عقد الصلح ؛ على أن تكون الإمامة لمعاوية ما كان حياً ؛ فإذا مات فالأمر للحسين أصغر أبناء على ؛ وبعد تنازله انصرف راجعاً مع أهل بيته إلى

الحسن (٤٠هـ)
٢٦٦١

تنازل الحسن
عن الخلافة

المدينة ؛ غير أنه لم يستمتع طويلا بالراتب الذى ضمنته له معاهدة الصلح إذ مات مسموما بعد بضع سنين بتحريض من يزيد بن معاوية .

معاوية

وبتنازل « الحسن » أصبح « معاوية » الحاكم الحقيقى للمسلمين ؛ وانتقل مركز الحكومة التى أسسها « على » فى الكوفة إلى دمشق حيث أحاط معاوية نفسه بأبهة الفرس والرومان ؛ وعمد إلى الخنجر والسهم للقضاء بهما على أعدائه الألداء وأصدقائه الذين لم تكن لتلين لهم قناة دون أن تحول أوشاج الدم والتفانى فى خدمة الإسلام إلى ذلك المصير المحزن . ومن ضمن الذين لاقوا حتفهم بسبب الطموح أو الاختلاف فى رأى « عبد الرحمن » ابن فاتح الشام العظيم^(١) الذى كانت شهرته العظيمة فى تلك البلاد والتقدير الذى ناله من مفكرى المسلمين باعثن على اغتياله . ويوجز لنا كاتب إنكليزى^(٢) محاييد أخلاق معاوية والظروف التى ساعدته على النجاح فى قوله : « كان الخليفة الأموى الأول ذكى الفؤاد قاسى القلب لا يحجم عن القتل فى سبيل توطيد ملكه ؛ كذلك كان الاغتيال وسيلته الوحيدة لإزاحة أعدائه ؛ وهو الذى حرض على تسميم ابن بنت الرسول ؛ وعلى هذا النمط لاقى الأشتر النخعى مالك بن الحارث أحد قواد الأبطال حتفه » .

ولكى يضمن « معاوية » الخلافة لابنه يزيد لم يتردد قط فى نكث العهد مع الحسين بن على . ومع ذلك فإننا نرى هذا العربى البعيد النظر يحكم دولة المسلمين ويحصر الخلافة فى أسرته ٩٠ سنة ؛ ولا نستطيع أن ننسب هذا الشذوذ إلا لعاملين أمكن التوصل إليهما خلال هذا البحث وهما : أن السلم الشديد الورع يرى أنه لا يستطيع القيام بالشعائر الدينية — كما ينبغى — إلا إذا نبذ

(١) عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

(٢) أوسبرن « الإسلام فى ظل حكم العرب » .

التدخل في الأمور الدنيوية جانباً ؛ أما السبب الثاني والأهم فهو الروح القبلية المتأصلة في قلوب العرب .

وهكذا نجد غزاة آسيا وفتح أفريقيا الشمالية ومدوخى أسبانيا لا يعجزون عن السمو إلى مستوى مركزهم العالمى لحسب ؛ بل نراهم أيضاً في وسط العظمة التي يرفلون في حللها يحتفظون بزرعاتهم المتباينة وتنافسهم على أشد ما يكون التنافس والتباغض والنزاع المعروف عن أهل الصحراء ، وعلى الجملة فقد شرعوا ثانية يذكرون أوار العداء ويؤججون أجيح البغضاء في ميدان أوسع ومسرح أكبر .

لم ينجم عن تولى الأمويين دفة الحكم تغيير معالم الخلافة لحسب بل أدى أيضاً إلى قلب المبدأ السائد وخلق عوامل جديدة أثرت تأثيراً عظيماً على مصائر تلك الإمبراطورية وعلى تطور شعبها . ولكي ندرك هذه الظروف تمام الإدراك ونلم بمجرى التاريخ يجب أن نستعرض بإيجاز وضع القبائل العربية المختلفة في مواطنها وعلاقاتها الواحدة بالأخرى . فلو طرحنا جانباً الحروب التي يرجع أصلها إلى التباغض الدينى أو إلى الخلاف في المبادئ الأساسية كال كفاح بين الديمقراطية والأتوقراطية ، أو بين الحرية الشخصية وبين الاستبداد الإقطاعى ، لما رأينا في آسيا وأوروبا ولا بين المسيحيين والمسلمين سبباً أدى إلى التفرقة — سواء بين طوائف الشعب الواحد أو بين الشعوب المختلفة وإقحامهم في حروب دموية مهلكة — مثل ذلك العداء العنصرى الذى يلقي ظلاً قائماً على الأجيال وتتضاءل دونه الثورات الدينية والاجتماعية والسياسة .

كان يستوطن بلاد العرب في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) شعب ينتسب إلى قبيلتين مختلفتين تنتسب إحداها إلى قحطان والأخرى إلى إسماعيل ابن إبراهيم ، وكان منشأ الأولى اليمن وموطن الثانية الحجاز ، وأطلق على القحطانيين فيما بعد اسم الحيريين نسبة إلى حمير أحد أولاد عبد شمس وإن كان مؤرخو العرب يطلقون عليهم اسم اليمنيين نسبة إلى موطنهم الأصلي .

تأثير خلافة بني أمية في الإسلام

بنو حمير

أما القبيلة التي استوطنت مأرب (سبأ) عاصمة اليمن تحت سلطان ملوك
بنى حمير فاسمها بنو أسد من أولاد قحطان ، ويظهر أن بنى أسد كانت قد ارتحلت
إلى الشمال في القرن الثاني الميلادي وأجلت القبائل الأخرى عن مواقعها ، ثم
استقر فرع منها في « بطن مر » على مقربة من مكة وأطلق عليه اسم قضاة ،
وكان هؤلاء يقيمون في ذلك الموضع عند ظهور النبي ؛ كما نزل فرع آخر من هذه
القبيلة في يثرب حيث انقسم بمضى الزمن إلى عثرتين هما الأوس والخزرج ،
وارتحل آخرون إلى سوريا والعراق ؛ فأطلق على الذين استوطنوا جانب الشام
اسم بنى غسان (الغساسنة) ؛ والذين سكنوا أطراف العراق اسم بنى كلب ؛
كذلك نزل فرع آخر بهمدان بينما ولى عدد كبير منهم وجهه شرقاً ونزل بولاية
عمان على سواحل الخليج الفارسي .

ذلك هو الوضع الذي كان عليه الحميريون إبان بعث الرسول صلى الله
عليه وسلم .

كذلك يطلق أحياناً على القبائل الإسماعيلية اسم بنى معد^(١) ، ولكنهم
يسمون غالباً ببني مضر نسبة إلى مضر حفيد معد ؛ وسوف نطلق عليهم فيما يلي
من فصول الكتاب اسم المضريين ، وإن كان المؤرخون العرب يستعمضون
عنه بأسماء البطون كقریش وقيس وبكر وتغلب وتميم . أما قریش فقد سكنوا
مكة وضواحيها ، وانتشرت البطون الأخرى في أنحاء الحجاز (ما عدا يثرب)
وأواسط بلاد العرب .

المضريون

وقد نشأ بين هذين الشمين بنى حمير وبنى مضر عداً شديداً لا يدرك
كنهه ومداه من ينظر إلى هذا الموضوع من وجهة نظر التاريخ الأوربية ؛
فكان اللسان الحميري وهو مزيج من اصطلاحات سامية وأخرى محلية قد
استعمض عنه قبل ظهور النبي (ص) بزمن طويل باللغة العربية المصفاة وهي لغة

المداء والتنافس
بين حمير ومضر

(١) مضر هو ابن معد بن عدنان حفيد لإسماعيل عليه السلام .

بنى مضر التي نالت أرجحية أدبية ، وأخذ العرب في كافة أنحاء شبه الجزيرة يتكلمونها مع اختلاف بسيط في اللهجة والجرس ، ومع أن عاداتهم وأخلاقهم ومناحي تفكيرهم وأذواقهم كانت متشابهة ، إلا أنه كان ثمة فرق واضح بين القبيلتين ، فإذا ما استقصينا أسباب ذلك الفرق وجدنا أن بنى حير كانوا قد بلغوا شأواً عظيماً في المدنية قبل بزوغ فجر الإسلام بمدة قرون ؛ فكانوا أينما حلوا يؤسسون لهم حكومة منظمة وإن كانت بدائية ، غير أنها كانت على كل حال منظمة تنظيمياً كافياً لأغراض الحياة المدنية العادية ، وكانوا فوق ذلك يعرفون فن الكتابة ، كما كان معظمهم يزاول مهنة الزراعة .

أما قبيلة مضر فكانت منذ زمن « قصى » باستثناء قريش بدوية رحالة وكان كل بطن من بطونها بمنزلة الواحد عن الآخر ، فتباينت نزعاتها وتباعدت مصالحها ، وفوق ذلك كان كل بطن منها ينتخب رئيسه بطريقة الاقتراع ؛ فلا جرم أن يؤدي هذا التباعد بطبيعة الحال إلى تفرق كلتهم وخضوعهم إلى سلطان بنى حير . ولكنهم على الرغم من الحروب الشعواء التي كانوا يشنونها دفاعاً عن حريتهم المثلومة واستقلالهم المفقود ، رزحوا تحت سلطان الحيريين وأخذوا يدفعون لهم الجزية حتى القرن الخامس الميلادي . وقد أثار ذلك النزاع المتواصل بين حير ومضر في سبيل التفوق من جهة ، ونيل الاستقلال من الجهة الأخرى عاطفة جامحة من الحسد والبغضاء في قلوب الفريقين ، وزاد في سميها قصائد شعرائهما الحماسية التي كانوا يشيدون فيها بأيام الحروب والسلطان ، كفوز كندة على بنى تميم ، واكتساح قيس لبنى أسد . ولما ظهر الإسلام بدأت تعاليمه تقضي على ذلك العداء القبلي ، وتلطف من حدة تلك القصائد النارية .

ولو عاش الرسول مدة أطول لصهرت تعاليمه وشخصيته الفذة تلك القبائل في شعب متجانس ، ولا نعتقد أن عشر السنوات — مدة الرسالة — كانت كافية للقضاء على هذا الحقد المؤرث ، ولكن الرسول (ص) استطاع أن يظهر

قلوبهم من الضغائن والأحقاد في المدينة وحدها حيث كان نفوذهم قد بلغ حد الكمال .

وتقول الرواية العربية إن موجة الفتوحات التي وقعت في أيام أبي بكر وعمر حملت معها القبائل العربية إلى أنحاء العالم القديم ، فنزلت « مضر » بالبصرة ، وسكنت حمير الكوفة ، وأصبح بنو مضر هم العنصر السائد في دمشق وفلسطين ، واستقر فرع من حمير في القسم الشمالي من الشام ، وشمال بلاد العرب أما الولايات الشرقية ومصر وأفريقيا فقد انتشر فيها — كثيراً أو قليلاً — بطون من هاتين القبيلتين ؛ ولكنهم كانوا — أينما رحلوا — يحملون في أفئدتهم الضغائن والتناؤد القديمين . ولا مرية أن « عمر » العظيم استطاع أن يكبت تلك العواطف المتأججة بيد من حديد ، كما أن العمل الذي كان ملقى على كواهلهم كشعب فاتح — وهو حفظ النفس وضرورة التوسع — لم يكن ليسمح لهم قط بإظهار أية عاطفة غير عاطفة المنافسة الشريفة . ولو قدّر « لعل » أن يخلف « عمر » بهدوء واطمئنان لأمكنه على الأرجح أن يوحد هاتين القبيلتين ويجعل منهما شعباً متجانساً تحدوه نزعة واحدة ، ولكن الأمويين لم يلبثوا — في عهد « عثمان » أن أوغروا في الصدور مكنون الضغائن القديمة التي كان يشتد سعيها في الأندلس وصقلية وصحارى أفريقيا ، وسهول خراسان وقفار كابول . ويؤيد لنا التاريخ فيما بعد أن هذا التباغض المحزن لم يكن وخيم العاقبة على مثيريه فحسب ، بل كان له أعظم الأثر أيضاً على مستقبل الشعب العربي ، وعلى تقرير مصير العناصر الرومانية والجرمانية التي اشتبكت معهم في القتال .

ومن المحزن حقاً أن العرب لم يدركوا وقتئذ حرجة موقفهم ، بل راحوا يضعون العقبات في سبيل نجاحهم في اللحظة التي طأطأ الغرب لهم هامته ، وخر ساجداً تحت أقدامهم . ومهما يكن من شيء فإن تقاوم تلك الأحقاد أدّى في الواقع إلى ضياع أهم جزء من إمبراطوريتهم .

كان معاوية يعتمد في تأييد سلطانه على مؤازرة المضريين ، ولكنه برغم ذلك بقى محافظاً على الموازنة بين كفتى هاتين القبيلتين ، أما في زمن خلفائه فقد تبدل الحال تماماً وأصبحت القبيلة التي تتغلب ردحاً من الزمن تسوم أختها صنوف الاضطهاد . ومما يسجل للأمويين بالفخر والإعجاب ، أنهم ظلوا محافظين على ولائهم للخليفة الأموي عماد بيتهم ورئيس قبيلتهم ، كذلك كان جنود الشام قد عرفوا بإخلاصهم له . وإن ننسى لا ننسى تلك الظاهرة التي بدت واضحة جلية في تلك الأثناء ، وهي أن المتدينين والمفكرين انسحبوا من ميدان السياسة وقصروا مهمهم على دراسة اللغة والآداب والشريعة التي كانت قد وضعت أسسها الأولى في ذلك الحين ، واطمأنوا إلى حياتهم الجديدة في تلك العزلة الاختيارية . أما الخوارج الذين ثاروا على « علي بن أبي طالب » فقد انهزموا في موقعة النهروان ، والتجأوا إلى ولاية الإحساء وأواسط بلاد العرب ذات المسالك الوعرة وأخذوا يبشرون بمبادئهم^(١) المغالية ذات الصبغة القائمة ، وهكذا أصبحوا بكثرة عددهم واستهتارهم بالحياة وإخلاصهم وتقائهم لمبتدئهم عاملاً مخيفاً يقلق مضجع حكومة الشام ، فثاروا على معاوية واحتلوا كلدة ، وهددوا بنزو العراق ، ولكنهم برغم ذلك منيوا بشر هزيمة واضطروا إلى الاعتصام ثانية في معاقلمهم في الصحراء .

وما أن وطد معاوية دعائم سلطانه في دمشق حتى حول اهتمامه شطر الفتح وأفريقية أفريقيا . ويلاحظ أن العرب إنما يقصدون بأفريقيا البلاد الشمالية الواقعة فيما وراء حدود مصر ، ويقسمونها إلى ثلاثة أقسام^(٢) :

(١) كان هؤلاء يعترفون بالخليفين الأولين غيب ويذهبون إلى أن الأمويين مفركون ويقولون بضرورة انتخاب الإمام من بين المسلمين دون التفتد بأسرة أو قبيلة وإجراء حكم الله ويرون من عداهم مقضياً عليه بالنار ، ومحرمون للملاهي على أنواعها وعقاب من يتعاطاها الموت الزؤام .
(٢) يقال إن أحد ملوك الحميريين كان قد توغل في شمال أفريقيا حيث أسس مستعمرات سكنها بعض القحطانيين ولهذا سمي أفريقيوس أو أنريقانيوس .

(١) بلاد المغرب الأقصى الممتدة من سواحل المحيط الأطلسي إلى تلمسان جنوباً حتى الصحراء الكبرى .

(٢) المغرب الأدنى ويشتمل على البلاد الواقعة بين وهران وبجاية .

(٣) سهول أفريقيا الممتدة من تخوم الجزائر الحالية شرقاً إلى حدود مصر .
كذلك كان يسكن أفريقيا الشمالية غربي صحراء ليبيا ، وشمال السودان ، شعب ينتسب إلى الأصل السامي ، كما أن كثيراً من العشائر الضاربة في سهول تلك المنطقة وتلاها ترجع في نسبتها إلى قبيلتي حمير ومضر العربيتين ، وكانوا على أكبر جانب من الشجاعة وشدة البأس وحب الاستقلال المعروف عن أهل الصحراء . وقد احتل العرب تلك الولاية لأول مرة في عهد « عمر بن الخطاب » ثم توغلوا في هضابها في زمن « عثمان بن عفان » حتى وصلوا إلى برقة .

وعلى أثر هزيمة « غريقيوس » في المعركة الفاصلة التي دارت رحاها على مقربة من « قرطجنة » القديمة ، تعهد الروم بأن يدفعوا جزية سنوية للعرب الذين وافقواهم أيضاً على الانسحاب تاركين حاميتين صغيرتين في « زويلة » و « برقة » وما هي إلا برهة من الزمن حتى دخل الروم ثانية تلك البلاد ، غير أن جشعهم وابتزازهم الأموال بلغا درجة لم يحتملها الأهليون ، فهبوا يستجدون بالعرب لإنقاذهم من نير الدولة البيزنطية ، وسرعان ما لبى معاوية نداءهم وأرسل جيشاً لجباً برئاسة عقبة بن نافع المشهور ، فأجلاهم عن البلاد وألحقها بالإمبراطورية العربية .
وفي عام ٥٠ هـ شيد عقبة في جنوبي تونس مدينة عسكرية باسم « القيروان » وجعلها قاعدة لصد هجمات البربر وحماية جنود العرب من غزو الروم ، وبذلك أصبحت الغابة الكثيفة التي كانت مرتعاً خصيباً للوحوش الضارية والزحافات السامة أرضاً مستوية ، تقوم فوقها تلك المدينة الزاهرة التي لا تزال نشاهد آثارها حتى اليوم .

نشيد مدينة
القيروان

وفي عام ٥٥ هـ بدأ « عقبة » في زحفه المشهور على الغرب ، فأخذت المدن

تقدم إليه طاعتها الواحدة تلو الأخرى ، بالرغم من مناوشات الجيوش الرومانية والبيزنطية ، وهكذا ظل يتوغل في تلك الأصقاع حتى وصل إلى المحيط الأطلسي ، فأثر زحفه المدهش والضربات السريعة التي أنزلها بالروم والبربر تأثيرها المطلوب وبقيت البلاد بعد ذلك تتمتع بنعمة الطمأنينة والعدل . وقد ظل عقبة ، فيما عدا فترة قصيرة استدعاه فيها الخليفة إلى دمشق ، يحكم أفريقيا وملحقاتها الغربية حتى لاقى حتفه عام ٦٥ هـ . وفي تلك السنة انتفتت قبائل البربر الوحشية من قم الجبال وتلال الأطلس على جنود العرب القليل العدد في معسكراتهم في القيروان ، ويؤكد لنا المؤرخون أنه ليس ثمة شعب أو عنصر يعدل العنصر العربي في الشجاعة التي أظهرها ، والنشاط الذي أبداه في خلال الحروب على تلك العناصر الوحشية المحاربة في شمالي أفريقيا . وقد استطاع العرب بجيشهم القليل العدد والعدد أن يفتحوا بلاداً مترامية الأطراف لا يسكنها شعب مسلم بالضرورة كالشعب الهندي إنما يسكنها شعب شرس الطباع معتاد على الحروب والطمعان .

مقتل عقبة

أحاط البربر بالعاصمة إحاطة السوار بالمعصم ، بيد أن عقبة لم يكن ممن تقدمهم الخطوب ؛ فكسر غمد سيفه إيذاناً منه بالعزم على الموت دون التسليم وهجم مع فرقته الصغيرة على أعدائه هجمة رجل واحد ، ولكن سيوفهم لم تقدم فتية في تلك المعركة ، إذ لم يلبث العدو أن فتك به وبمعظم جنوده ، وقد عاد من بقي منهم حياً إلى مصر . وهكذا سقطت القيروان ثانية في أيدي البربر ، وخيل أن حكم العرب في أفريقيا قد أفل نجمه إلى الأبد .

الفتوح
في الشرق

وإذا عدنا بالذاكرة على أجنحة الخيال إلى المشرق في تلك الأثناء لرأينا المهلب بن أبي صفرة يحتل بلاد السند ووادي الهندوس المنخفض . ورأينا العرب أيضاً يحوزون النصر تلو النصر في الأفغان الشرقية ؛ أما الروم الذين انتهزوا فرصة وقوع المنازعات الداخلية وأغاروا على الممتلكات الإسلامية ، فقد منيوا بشر

هزيمة في عدة مواقع ، وفر الأسطول الروماني أمام أسطول العرب ، كما أسلمت عدة جزر من جزر الأرخبيل اليوناني .

معاوية يستخلف
ابنه يزيد

وتقول لنا الرواية العربية إن « معاوية » بتحريض من « المغيرة بن شعبه » عامله في البصرة فكر في مبايعة ابنه « يزيد » بولاية العهد ، وكان يؤازره في هذه الخطة « زياد بن أبيه »^(١) عامله في العراق وخراسان ، ويقال إن الخليفة استعمل في إخراج تلك الأمنية إلى حيز الوجود جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، فرشا بعض العراقيين وأخاف البعض الآخر .

وفي عام ٥١ هـ خرج « معاوية » إلى المدينة ومكة لكي يستوثق من أهل الحجاز ، واستطاع بتهديده وحيلته أن يأخذ البيعة منهم جميعا ما عدا أربعة من مشاهير المسلمين وهم : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، إذ أبوا النزول على رأيه رغم الشروط النسخية التي عرضها عليهم ، فتقوّت بهم قلوب أهل الحجاز واشتدت عزائمهم ، وقد كان لعبد الله بن الزبير الذي يسميه معاوية « ثعلب قریش » عين ترمو إلى الخلافة أما الباقيون فكانوا يبغيضون يزيد لهفات ينقمونها عليه .

وفي شهر رجب عام ٦٠ هـ (نيسان ٦٨٠ م) توفي « معاوية » ، ويقال إنه كان أبيض البشرة ، طويل القامة ، متقنا للسياسة ، متأنيا للأمر ، مداريا للناس ، حاذقا ، شجاعا ، سخيا عند الضرورة ؛ ويقول المؤرخون : « إنه كان أول من ألقى الخطبة وهو جالس ، وأول من أدخل الحصيان في خدمته الخاصة » وكان يقوم بأداء فروض الدين كاملة غير منقوصة ، ولكنه لم يكن ليسمح قط لأى مخلوق أو قانون سماوى أن يتدخل في تنفيذ مشاريعه أو يحول دون تحقيق مآربه .

وتقول لنا الرواية العربية إنه حالما بويع بالخلافة تخلص من جميع أعدائه

(١) هو ابن أبي سفيان غير الشرعي ، ولهذا سمي « بابن أبيه »

وتفرغ لأمر الدولة التي أخذ يصرفها بحزم ودهاء جديرين بالإعجاب ؛ ويذكر المسعودي جلامن أخلاقه بقوله : « كان إذا صلى الفجر يجلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشي ، ثم يؤتى بالفداء الأصفر ويتحدث طويلا ، ثم يدخل منزله ؛ وبعدئذ يخرج إلى المسجد فيسند ظهره إلى المقصورة ، ويجلس على الكرسي ويقوم الأحداث فيتقدم إليه الضعيف والأعرج والصبي والمرأة ومن لا أحد له يمرضون عليه شكواهم ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ؛ ثم يقول ائذنوا للأشراف على قدر منازلهم ، ثم يؤتى بالفداء ويتقدم إليه أصحاب الحوائج ، ثم يرفع الفداء ويدخل منزله حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلي ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه ، ويجلس إلى العصر ؛ ثم يدخل منزله حتى ينادى بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلي ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ، ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامهم والمعجم وملوكها وسياستها ؛ ثم يدخل فينام » . وقد كان عهد معاوية على الجملة عهداً زاهراً ، تمتعت فيه البلاد بنعمة الطمأنينة والعدل ، وأصابت نجاحاً عظيماً في الخارج .

وكان قسطنطين الثاني الذي اغتال أخاه ثيودسيوس على رأس الإمبراطورية الرومانية في أول عهد معاوية ، غير أنه تنازل عن الحكم لابنه قسطنطين الرابع . وعلى أثر وفاة معاوية بويح « يزيد » بتمتضي وصية والده . وبعثلاء يزيد عرش الخلافة تقوضت مبادئ الجمهورية القاضية باختيار أمير المؤمنين بالشورى وهي المبادئ التي افتتن بها العرب افتتاحاً جعلهم يتجاهلون حق أسرة الرسول في زعامة الإسلام الروحية والدنيوية ، ومنذ ذلك الحين أخذ الخليفة يوصى لمن يتولى بعده بالخلافة ضامناً تنفيذ وصيته بأخذ البيعة من الجنود والخاصة في حياته . وقد قال الإمام الحسن البصري الذي عاش في نهاية ذلك العصر ما يلي : « لقد ارتبكت أمور المسلمين على يد رجلين هما : عمرو بن العاص الذي أشار على

معاوية
في القسطنطينية

يزيد الأول
شعبان ٦١ هـ
نيسان ٦٨٠ م

معاوية برفع المصاحف على أسنة الرماح ، والآخـر هو المغيرة الذى أشار على معاوية بأخذ البيعة لابنه « يزيد » ، ولولا ذلك لظل أهل الشورى ينصبون من يرونه أهلاً لها إلى يوم القيامة ، إذ أن الخلفاء الذين جاءوا بعد معاوية اتـهـجـوا سبيله فى أخذ البيعة على الناس لأولادهم . وقد كان يزيد شديد الغواية ، فاسد الطبع ، عسوفاً ظالماً ، سادراً فى لهوه ، صاحب طرب ومنادمة على الشراب .

وقد كان الصلح المعقود بين الحسن ومعاوية ينص على الاعتراف بحق الحسين فى الخلافة ، ولكن معاوية نقض العهد وأخذ لابنه البيعة فحنق الحسين ، وزاد فى حنقه فساد يزيد فلم يعترف قط بطاغية الشام ، ولهذا عند ما طلب إليه أهل الكوفة أن يعاونهم على رفع نير بنى أمية وينقذهم من استبدادهم لـبى طلبهم فى الحال ، وباستثناء عبد الله بن الزبير الذى شجعه على السير كيما يقصيه عن طريقه ويخلو له الجو من بعده ، فقد حاول جميع أصدقائه أن يثـنـوه عن عزـمه ونصـحوه ألا يثق بمواعيد المراقبين ، الذين وإن كانوا متحايين بالحـمـاسة وشدة البأس إلا أنهم قوم قلب يعوزهم الثبات والحزم ، فبينما تـراهم يوماً شديدي الحماسة لعقيدة يدينون بها أو متفانين فى الإخلاص لشخص يعقدونه ، إذ بهم فى اليوم التالى قد أعرضوا عن العقيدة التى آمنوا بها وخذلوا الشخص الذى أجمعوا على نصرته بالأمس ؛ غير أن التأكيدات التى وردت إليه بأن أهل العراق قد أجمعوا على مبايعته ، وأنهم سوف يهتـبـون لنصرته متى وصل إليهم ، حملته على الشخوص إلى الكوفة فاجتاز الصحراء دون أن يلقى أية مقاومة ؛ وكان يصحبه جماعة من أهل بيته وأصحابه وأتباعه المخلصين وأطفاله ونسائه ؛ فلما اقترب من حدود العراق لم ير أثراً لجيش الكوفة الذى وعده بالموت دونـه ، فروّع اثنك المفاجأة ، ودخلت على قلبه الوحشة من مظهر البلد العدائى ، وشم فى الجو رائحة الغدر والخيانة ، فسكر مع جماعته الصغيرة فى الموقع المسمى الآن « بكر بلاء » على مقربة من الشاطئ الغربى للفرات ؛ ولم يلبث أن تكشف له الغدر ،

وحسرت له الخديعة لثامها عن جيش يزيد تحت إمرة عبيد الله بن زياد بن أبيه . مذبة كربلاء .
فحاصرت هذه القوة خيام الحسين عدة أيام وسدت عليهم منافذ النجاة كما حالت
بين جماعته وبين الماء .

ولكن جنود « عبد الله » لم يجرؤوا بالرغم من كل ذلك على الدنو من الحسين
الذى كان قد اقترح على رئيسهم عمر بن سعد ثلاث خصال وهى : إما أن يتركه
يرجع إلى المدينة ، أو أن يسيره إلى حدود الترك يقاتلهم حتى يموت ، أو يسيره
إلى يزيد^(١) ، ولكن أوامر طاغية أمية (ابن زياد) كانت لا تقبل التأويل ، وهى
أن يحملوهم إلى الخليفة ليرى رأيه فيهم كمجرمين : ثم عاد « الحسين » فمرض
عليهم أن يبقوا على حياة الأطفال الأبرياء والنساء الضعيفات ويقتلوه وحده ،
فيضعوا حداً لهذا القتال غير المتكافئ ، بيد أن الرحمة لم تنسح لها قلوبهم ؛ وعندئذ
ألح على أصحابه أن يتركوه وحده ويلوذوا بالفرار ، فرفضوا أن يتخلوا عنه قائلين :
« لا خير فى الحياة بعدك » ؛ كذلك أحجم أحد رؤساء جيش « يزيد » عن
الاشتراك فى القتال عند ما يتيقن أن الدائرة ستدور ولا ريب على ابن بنت
الرسول ، فترك الجيش فى ٣٠ من أتباعه .

وكان « الحسين » فى كل التحام يعقد له النصر على أعدائه ، غير أن النبيل
كانت تحصد أصحابه من بعيد فيسقط الواحد تلو الآخر حتى قتلوا جميعاً إلا ابن
بنت الرسول الذى تحامل على نفسه ويم وجهه شطر النهر ليطفئ ظمأه ، فسددوا
إليه السهام ورموه بالنبل ليجولوا بينه وبين الماء . فصاد أدراجه إلى خيمته وأخذ
بين يديه ابنه الرضيع فرشقه أحدهم بسهم قضى عليه فى الحال ، وعلى هذا النحو
فتكوا بأولاده وأولاد أخيه وهم فى أحضانهم ؛ ولما أزهقه الجزع وألغى نفسه وحيداً
خائر القوى حيال أعدائه خرج من خيمته ، فناولته إحدى النساء بعض الماء

(١) تجمع الرواة وعلى الأخص ابن الطبرى : أن الحسين لو قدم على يزيد لوجده مبعلاً
له عازفاً بقدره ، ويقال إنه لما وصله خبر تلك المذبحة لعن « ابن سمية » وترحم على الحسين ،
وكان قصره من البكاء عليه كأنه فى مناعة ، ولكن المجرم شمر بن ذى الجوشن هو الذى أوقد
النار وضربها . (المغرب)

ولكنه ما كاد يرفع الوعاء إلى شفتيه حتى سدّوا إليه سهما ملأه دماً ، فرفع يديه إلى السماء يستمطر الرحمة على الأحياء والأموات من جماعته ؛ ثم نهض واقفاً صادق البأس ثابت الجنان وحمل عليهم حملة مستميتة ، قفروا من أماله ، ولكن الضعف كان قد بلغ منه منتهاه من كثرة ما نزف من دمه فسقط على الأرض ، وفي الحال هجموا عليه واحتزوا رأسه ، ثم حملوه إلى قلعة الكوفة ، فأقبل « عبد الله ^(١) » عليه ينكته بالقضيب فقال له أحد الحاضرين : « ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه » . ويقول المؤرخ الإنجليزى الأشهر « جيبون » : « إن مأساة الحسين المروعة بالرغم من تقادم عهدها وتباين موطنها لا بد أن تثير العطف والحنان في نفس أقل القراء إحساساً وأقسام قلباً » . والآن وقد وقفنا على تفاصيل تلك المذبحة النكراء ، نستطيع أن نفهم مبلغ الحزن الممض الذى يشجو قلوب شيعة على عند إحياء ذكرى استشهاد الحسين .

وهكذا فاضت نفس من أزكى النفوس فى ذلك العصر ، وكادت تنقرض بموته أفراد أسرة النبی الذکور — شيباً وشباناً — لولا هذا الطفل المريض الذى أنقذته « زينب » أخت الحسين من المذبحة العامة ، وقد كان اسمه « علياً » ، ولقب فيما بعد « بزین العابدین » ، وهو ابن الحسين من زوجه بنت « يزدرج » آخر ملوك الفرس الساسانيين ، وفى شخصه خلدت أسرة النبی ، كما كان فوق ذلك يمثل المطالبين بعرش الفرس من آل ساسان ؛ ويقال إن عبد الله كان قد فكر فى قتله ، غير أن شيئاً فى نظرات « زينب » وعزمها على الموت مع ابن أخيها ألقي الرعب فى قلب ذلك الطاغية العشوم فأحجم عن قصده .

بعث « زياد » نساء « الحسين » و « على الصغير » إلى دمشق تحوّلهم فرقة

(١) يقول المسعودى : إن « يزيد » هو الذى أقبل ينكت الرأس بالقضيب ، وإن « أبا بردة الأسلى » هو الذى نهاه عن ذلك . (المغرب)

من الجنود حاملين رءوس الشهداء على أسنة الرماح ، وعند ما اتهموا إلى عاصمة الخلافة جلست بنات الرسول في أثوابهن الممزقة تحت أسوار قصر الخليفة يندبن ويعولن على نحو ما تفعل النساء العربيات إذا ما فجعن بعزير لديهن ، فلهل قلب « يزيد » وأرجعهن في الحال إلى المدينة .

لقد هزت مذبحة كربلاء العالم الإسلامي هزاً عنيفاً وروعته بمأساته الدامية ، كما خلقت في فارس شعوراً وطنياً ساعد أحفاد العباس فيما بعد على استغلاله لمصلحتهم الشخصية وتقويض دعائم الدولة الأموية . وكان السخط قد بلغ منتهاه في المدينة ، حتى اضطر الخليفة إلى أن يولى على أهلها عاملاً خاصاً تهدئة خواطرم ، ويحملهم على إرسال وفد منهم إلى « دمشق » لكي يتوسط في إنصاف أسرة الحسين ، بيد أن الوفد مع ذلك رجع ساخطاً على « يزيد » للحياة التي كان يجيهاها ، والمعاملة التي لاقاها على يديه ، فهاج هائج أهل المدينة لفشل وساطتهم ، وأعلنوا خلع يزيد وطردهوا عامله ؛ فأنارت تلك الأخبار غضب الخليفة الذي أرسل إليهم في الحال جيشاً من أهل الشام بقيادة « مسلم بن عقبة » لتأديبهم .

وما كاد الجيش الأموي يصل إلى الموضع المعروف « بالحرّة » حتى خرج موفدة الحرّة إليه أهل المدينة ، ودارت بين الفريقين معركة هائلة أسفرت عن هزيمة أهل المدينة ، وقتل زهرة شباب الأنصار والمهاجرين ، وانتهاك حرمة مأوى الرسول ومهبط الوحي . وهكذا قدر للذين عضدوا رسولهم في وقت الشدة أن يتمرضوا لأشنع تفكيك لا يعرف التاريخ له مثيلاً . ويعلق مؤرخ أوربي على هذا الحادث بقوله : إن تأثير هذا الحادث على العالم الإسلامي كان هائلاً مروعاً ، فكان الأمويين قد أرادوا أن يوفوا ما عليهم من دين حينما عاملهم الرسول وجيشه بالرحمة والعطف ^(١) . فشدردوا وقتلوا خيرة شباب المدينة ورجالها الميامين ، كما

(١) يروى أن « مسلم » لما فرغ من القتال بث برءوس أهل المدينة إلى يزيد فلما ألقبت بين يديه جمل يمثل بقول ابن الزبير يوم أحد : =

أجبروا من تبقى منهم على مباينة يزيد على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم ، فمن امتنع عن ذلك وصمه بالسكى على رقبته ، ولم يستثن من هذا العار غير على الثانى بن الحسين وعلى حفيد العباس . وفى تلك الموقعة هدمت معظم المدارس والمنشآت العامة ، ودخلت شبه جزيرة العرب فى عهد مظلم شديد الحلكة ، حتى قبيض لها « جعفر الصادق » بعد بضع سنوات فبعث فى المدينة روح الحركة العلمية التى كانت قد ازدهرت فى عهد « على بن أبى طالب » ؛ وبرغم انتعاش تلك الحركة بقيت المدينة من شبه الجزيرة العربية كالواحة من الصحراء التى تحيطها من جهاتها الأربع الكآبة الموحشة والظلام الدامس ، ولم تسترد المدينة قط عهدها الغابر حتى أصبحت فى عصر بنى أمية بلدة الماضى السحيق ؛ ويقال إن المنصور ثانى الخلفاء العباسيين حينما زارها احتاج إلى دليل لى يرشده إلى آثار أبطالها الأقدمين .

ولما فرغ « مسلم بن عقبة » من صب جام غضبه على أهل المدينة مضى إلى مكة لمحاربة « عبد الله بن الزبير » ، الذى كان أهل المدينة قد بايعوه بالخلافة ، فأحاطها بجيشه ونصب عايقا المجانيق ، غير أن موت يزيد حمله على رفع الحصار والعودة إلى دمشق .

حصار مكة الأول

استخلف « يزيد » ابنه معاوية ، وكان شابا وديع النفس ، يمتد أعمال العنف ، فاعتزل الحياة العامة بعد حكم أشهر قلائل ، وتوفى وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ؛ ومنهم من يقول : إنه مات مسموما . وبوفاة معاوية الثانى انتهى فرع أبى سفيان . وكان « عبد الله بن الزبير » قد تربع بالخلافة على أثر وفاة يزيد فى الحجاز والعراق وخراسان ؛ ولما كان قد غادر مكة وسارع إلى الشام لاستطاع أن يقوض دعائم تلك الأسرة ويستخلص الخلافة لنفسه ، ولكنه بدلا من ذلك اكتفى بمكة وحدها فأتاح للأمويين فرصة ليوحدوا كلمتهم ويلموا شعبيهم .

زوال الخلافة
عن آل حرب

لست أشياخى بيدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحا وأقالوا ليزيد لا فضل